عندما يكون شعر العامية أدبًا للحياة
رؤية تراثية

د. يسري عبد الغني

للشاعر الراحل صلاح عبد الصبور عدة مقالات عن شعر العامية تحت عنوان " أدب و لكن ليس له مستقبل " قال في أحدها (إن شعر العامية قدم لنا نماذج طيبة تستحق بكل المقاييس أن تنسب إلى رفيع الشعر، و لكنى مع ذلك كله ما زالت أقول أن هذا الشعر لون فني يبنى بناءه العظيم على خطأ لأنه يعتمد على لهجة لا ثبات لها).
هذا الخطأ الذي أشار إليه صلاح عبد الصبور في اعتماد شعر العامية الحر " قصيدة العامية " على لهجة لإثبات لها، ينسحب على باقي فنون الشعر العامي من زجل و مواليا و دوبيت و مقطعات شعرية ومربعات، وهذه المغالطة التي تبناها عبد الصبور في مقالاته تضرب عرض الحائط بتراثنا العربي من هذه الفنون الشعرية، التي أبدع فيها

العرب منذ أكثر من ألف ومئتين سنة بداية من فن المواليا و الفنون العراقية النشأة و الزجل الأندلسي، مرورا بإبداعات المصرين فى هذه الفنون و تطويرهم لها وابتكار أنواع جديدة منها منذ القرن السادس الهجري .

و قد حملت المخطوطات و كتب التراث الأدبي و كتب الرحالة و المؤرخين المشهورة والمتداولة في عصرنا هذا آلاف النماذج من الأزجال و البلاليق و الدوبيت و المقطعات الشعرية و المواويل و الأغاني من العصر المملوكي و العصر العثماني، نتعرف من خلالها على شعراء كبا ر، و لا يجد القارئ صعوبة في التواصل مع هذه الأشعار و الأزجال المدوّنة بالعامية المصرية المتداولة في ذلك الوقت و التي لا تختلف كثيرا عن العامية المصرية الحالية حيث أن العامية تأخذ معظم مفرداتها و استيعابها اللغوي من الفصحى .

و من هذه المخطوطات و الكتب ما هو متخصص في دراسة و نقد فنون الشعر العامي مثل :

- كتاب العاطل الحالي و المرخّص الغالي لصفّى الدين الحلي .

- و كتاب بلوغ الأمل لابن حجة الحموي في فن الزجل.

ومنها ما يحتوى على مختارات من إبداعات لشعراء معروفين فى عصر معيّن مثل كتاب :

- عقود أللآل في الموشحات و الأزجال لشمس الدين محمد بن حسن النواجى .

و منها الموسوعات الفنية مثل : المستطرف من كل فن مستظرف للإبشيهى

و الموسوعات التاريخية التي ضمّت أزجالا و أشعارا ترتبط بالوقائع والأحداث التاريخية مثل :

- بدائع الزهور في عجائب الدهور لابن إياس الحنفي المؤرخ الشاعر.

فإلي جانب الأهمية التاريخية لهذه الموسوعة التي قدم فيها ابن إياس تاريخ مصر بالتفصيل في العصر المملوكي الأول والثاني بأسلوب حكائي شيق ولغة بسيطة، فإن لهذه الموسوعة قيمة أدبية لا تقل عن قيمتها التاريخية لما تحتويه من نماذج شعرية و بالأخص نماذج الشعر العامي في ذلك العصر ولكون ابن إياس شاعرا فقد كانت لديه القدرة على اختيار أفضل النماذج الشعرية التي استعان بها في سرده التاريخي و قدم أزجالا و أشعارا كاملة لإبراهيم المعمار و خلف الغبارى و بدر الزيتوني وغيرهم..

وهناك أيضا موسوعة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى المؤرخ زميل ابن إياس .

و كذلك موسوعة تاريخ الجبرتي المعروفة بعجائب الآثار في التراجم و الأخبار التي قدم فيها الجبرتي نماذج من فنون الشعر العامي في العصر العثماني بداية من سنة 1106هجرية و تراجم لبعض شعراء تلك الفترة كالشاعر الساخر عامر الأنبوطي الذي توفى سنة 1173هجرية .

و من أمثلة النماذج الرائعة التي وردت في هذه الكتب زجل في الحكمة للشيخ أبى عبد الله خلف الغبارى قيّم الزجل الذي كان يعيش في القرن الثامن الهجري قال فيه :

في الناس رأينا للخير معادن والدر يوجد في كنز مثله
و ان رمت جوهر في الشخص مكنون فجوهر الشخص أصل فعله
و ان كان تريد صحة المعاني و شرح ما في البيان محرّر
خد فرع بيدك من أصل حنظل و ازرع جدوره في أرض عنبر
و اسقيه بماء ورد ممزوج و عقد جلاّب و حلّ سكر
و حين تشوفه عقد ثماره و أن أوانه و حلّ فصله
دوقه تراه مر و السبب فيه ما يرجع الفرع إلا لأصله
و ضد هذا تلقاه بالأغصان كم غصن لا تشتهى صفاته

حتى إذا أينع و اخضرّ عوده أظهر نبات يعجبك نباته
و الورد مثله يخرج من الشوك زاهي و يخضر به جناته
بقدر ما فيه من النعومة تجد خشونة في لمس شوك له
لكن لشمُّه و حسن قطفه تميل لقطفه و لا تملّه
في الخلق من بالكرم ثماره تجنى و منهم بالبخل يابس
هذا و هذا من طينه واحده إن ردت ده و ده تقايس
كم غصن في الروض له ضل ممدود مورق و مثمر بالزهر مايس
وغصن لا زهر و لا ثمار و لا أشاير توجب لحملُه
والغصن ما يفتخر على الروض بغير ثمار أوراقه و ضلُّه

و رغم شهرة خلف الغبارى و انتشار أزجاله في كتب التراث لم يذكر المؤرخون بالتحديد تاريخ ميلاده أو وفاته، قد ضاع ديوان خلف الغبارى الذي (كان أثيرا لديه و لم يتحه لأحد، اعتزازا به، و ربما ضاع ديوانه لهذا السبب مع موت صاحبه و ذهب بذهابه).
وما كنّا تعرفنا على إبداعه لولا أزجاله و أشعاره المتفرقة التي وردت في كتب التراث و لاقت اهتمام الباحثين و الدارسين القدماء و المحدثين .

وقد قام د. عوض على مرسى الغبارى بالإبحار والبحث في بطون هذه الكتب و جمع حوالي خمسمائة بيت من أزجال جده خلف الغبارى، و قدمها لنا في كتاب / ديوان بعنوان أزجال الشيخ خلف الغبارى و تضمن هذا الكتاب دراسة نقدية قام فيها د. عوض بتحليل الأزجال الواردة في الكتاب / الديوان و الكشف الخصوصية اللغوية و الجماليات الفنية لأزجال الغبارى .
وهناك زجالون و شعراء كبار وصلت إلينا دواوينهم كاملة و نالت شهرة في عصرنا مثل ديوان قمع النفوس من كلام ابن عروس الذي نسميه ديوان مربعات أحمد ابن عروس الشاعر المصري الذي عاش

في القرن الحادي عشر الهجري ، و قد انتشرت هذه المربعات انتشارا واسعا حتى
يومنا هذا منها ما تحوّل إلى أمثال و أقوال مأثورة، و منها ما يدخل في الأغاني و المواويل و قد يرددها البعض دون أن يعلم من صاحبها مثل هذه المربعات :

اللى حبنا حبيناه و صار متاعنا متاعه
و اللى كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه

و أيضا :

يا بت جملك هبشنى و الهبشه جت فى العبايه
رمان صدرك روشنى خلى فطورى عشايا

و أيضا :

ما حد خالى من الهم حتى قلوع المراكب
أوعى تقول للندل ياعم لو كان على السرج راكب

و ديوان (نزهة النفوس و مضحك العبوس) للشاعر الساخر على ابن سودون اليشغباوى 810 - 868هجرية ، كتبت غالبية أشعار هذا الديوان بالعامية المصرية، و ابن سودون شاعر ساخر ذاع صيته على مر العصور اهتم بتحقيق و دراسة إبداعاته الباحثون في العصر الحديث ، و منهم الأستاذ / العقاد و د. شوقي ضيف، و أول طبعة لهذا الديوان كانت في القاهرة عام 1863م و من أحدث طبعاته طبعة سلسلة الذخائر هيئة قصور الثقافة 2010م تحقيق د. أرنود فروليك المنقولة عن طبعة جامعة ليدن ـ هولندا 1998م، و من نماذج أشعاره الساخرة هذا النموذج في الباب الثالث من الشطر الثاني فى الديوان والذي سمّاه ابن سودون الموشحات الهبالية حيث قال عن معصرة قصب :

في الجزيرة معصرة فيها قصب يعصروه مقشور
يعملوه جلاّب و سكر شئ عجب ما ابركه في الدور

أه لو انه بلاش ما له تمن ما بقيت مقهور
أنظر السكر صحيح وارجع أنا بقليب مكسور
يا مفيلّس روح و اقنع بالنظر لا تكون طمّاع
انظر البحر بأمواجه انحدر ما عليه منّاع
خد و فرق و املا عبّك لا امتناع ليس ماء محجور

و قد سافر ابن سودون إلى دمشق و انتشرت أشعاره التي كتبها بالعامية المصرية في

بلاد الشام و لاقت استحسان الجمهور، و يدل ذلك على عدم دقة الرأي القائل بأن الشعر العامي أدب لا ينتشر خارج حدود القطر و من قبل ابن سودون انتشرت أزجال ابن قزمان القرطبي المكتوبة بالعامية الأندلسية في بلاد المغرب و المشرق العربي و أورد نقاد و مؤرخو الأدب العامي في العصر المملوكي بمصر و الشام نماذج من أزجال ابن قزمان الأندلسى و اهتموا بها، و نجد أن من بين نقاد و مؤرخي الشعر العامي من كان ينتقل بين البلدان العربية ينقد إبداعات شعرائها و يقدم منها نماذج، مثل صفّى الدين الذي كان شاعرا و ناقدا ولد في الكوفة في القرن السابع الهجري و تنقل بين بلاد العراق و الشام و مصر و ألّف كتابه الشهير العاطل الحالي و المرخّص الذي أورد فيه نماذج من إبداعات الزجل و المواليا و غيرها من فنون الشعر العامي لشعراء من عدة دول عربية، و كذلك عبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ و الرحّالة الكبير أورد في مقدمته الشهيرة عند حديثة عن فنون الشعر العامي و تصنيفها نماذج من إبداعات شعراء أندلسيين و مغاربة و مصريين و عراقيين .

و إن كان الحال هكذا في العصور الوسطى فما بالك بعصرنا هذا الذي حدثت فيه ثورة الإتصالات و أصبح العالم كما يقال قرية صغيرة، و ينطلق أصحاب الرأي القائل بأن الشعر العامي أدب لا ينتشر خارج حدود القطر من أن لكل قطر عاميته الخاصة التي لا

يفهمها غير سكّانه!، و نؤكد مرة أخرى على أن العاميات العربية جميعها في جوهرها لغة واحدة تستمد معظم مفرداتها من العربية الفصحى، و يتجاهل أصحاب هذا الرأي انتشار أزجال بيرم و أشعار فؤاد حداد و صلاح جاهين خارج حدود مصر، هذا بالإضافة إلى أغاني أم كلثوم و عبد الحليم حافظ التي كتبها حسين السيد و مرسى جميل عزيز و أغاني عبد الحليم حافظ و غيرهم، وأغاني فيروز التي كتبها الشاعر اللبناني سعيد عقل .

ولا أعرف ما الذي جعلني أفكر في الشاعر / حسين شفيق المصري الرجل الذي كان يتلمس طريقه بعصاه في شوارع القاهرة ، وعندما أصبح رئيساً لتحرير مجلة (الفكاهة) ، ثم مجلة (الاثنين) ، ومجلة (الدنيا) وكلها مجلات صدرت عن دار الهلال المصرية ، ومن أراد التعرف عليها فيطلع على بعضها في قسم الدوريات القديمة بدار الكتب المصرية.

كان شفيق المصري يغمس الورق في الماء ليكتب عليه بقلم (الكوبيا) كلمات قليلة تتصدر هذه المجلات كافتتاحية لها .

وفي الواقع أن هذا الرجل من الظواهر العجيبة في تاريخ الأدب العربي بوجه عام ، والأدب المصري الحديث بوجه خاص ، فقد صرف نصف بصره في قراءة الأدب العربي القديم ، ثم أنفق النصف الآخر في كتابة أدب جديد لا هو عامي ، ولا هو عربي فصيح ، ولكنه براعة في المزج والامتزاج بين الفصحى والعامية .

القصائد والمعلقات التي كتبها شعراء العصر الجاهلي ، حورها ودورها وسماها (المشعلقات) ، وهي من أظرف ما كتب في الأدب العربي الحديث ، ولم يتنبه أحد إلى ذلك .

شفيق المصري يحول معلقة الشاعر الجاهلي المتمرد / طرفة بن العبد البكري التي يقول في مطلعها :

[لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد]
يحولها إلى (مشعلقة) يقول في مطلعها :
[لزينب دكان بحارة منجد
تلوح به أقفاص عيش مقدد]

كما اشتهر حسين شفيق المصري بأنه من أعظم كتاب الأدب الشعبي في عصره ، وهو صاحب المسلسلات المكتوبة الشهيرة التي كان من أهمها : (الشاويش / شعلان عبد الموجود) ، و (حديث خالتي أم إبراهيم) .

كان المصري يسكن في بيت على باب (حارة السقائين) بالقرب من حي عابدين في القاهرة ، كان لا يحلو له العيش إلا مع البسطاء من الناس ، يستمع إلى أحاديثهم ، واستمع إلى آمالهم وأحلامهم ، ويتنصت إلى كلمات النساء في الحواري والأزقة ليحولها بعد ذلك إلى حوار أدبي شائق بأسلوبه المبدع .

كان يعرف الشعر وأسراره وصنعته معرفة تامة كاملة ، حتى أن أمير الشعراء / أحمد شوقي طلب منه أن يعد دراسة موسعة عن أوزان الشعر العربي المهجور ، أي الأوزان التي لم تستعمل كثيراً ، ليستخدمها شوقي في قصائده ، وبالفعل كتب حسين شفيق المصري هذه الدراسة وأعطاها لشوقي ألمع شعراء العصر الحديث ، قبل أن يؤلف مسرحياته الشعرية الشهيرة ، ولعل هذا كان هدف شوقي من الإحاطة بأوزان الشعر العربي المهجورة .

هذه هي شخصية شفيق المصري الغريم الأول لمحمود بيرم التونسي ، والذي لم ينشر له سطراً واحداً في المجلات التي كان يرأس تحريرها ، بسبب خطورة بيرم الأدبية على أدب حسين شفيق المصري ... قاتل الله الغيرة بين أهل الكلمة !!!!

أما القول بأن المصري وشى بالعم بيرم فهذا لا دليل عليه ولا بينة وقد نفى المصري ذلك قولا وكتابة وأكده أهل الأدب في تلك الفترة و أسانيد ذلك معروفة لمؤرخي تراثنا الثقافي .

وكانت جناية وسائل الإعلام العربية على الشعر ، وهي غير مقصودة ، من أخطر الجنايات على الأدب العربي الحديث ، لأنها فتحت الباب أمام كل من هب ودب أو كتب سطورًا أو كلمات لتغنى ، وقديمًا كانت الإذاعة لا تطلق على هذا الكلام اسم الشعر ، بل تقول أنها كلمات ، ولا بد من ملء الفراغ الزمني في ساعات الإرسال الإذاعية والتلفازية والتي تستمر 24 ساعة ، وليست هناك حيلة إلا أن يغني المغنون والمغنيات بأي كلمات دون حسيب أو رقيب .

صدقني لو قلت لك أن محمود بيرم التونسي هو سبب هذه المأساة أو الأزمة التي يعانيها الشعر العربي اليوم ، فقد استطاع بموهبته الخارقة وبأسلوبه السهل الممتنع أن يكتب بالعامية كلامًا راقيًا محترمًا يصل إلى مستوى الشعر العربي الرصين ، وقد ذكر طه حسين أنه لا يخاف على شعر الفصحى إلا من بيرم التونسي ، كما كان شوقي يخشى من بيرم أيضًا ، الذي كتب ذات يوم عن شوقي ، فقال : " يا أمير الشعر .. أنا أميرك " .

ولكن بيرم التونسي ظاهرة لا تتكرر ، والذين يقلدونه يعجزون عن الوصول إليه بأي حال من الأحوال ، لأنه كان ينظم بالعامية ومعه أنفاس وروح الشعر العربي الأصيل ، وكان في نفس الوقت يملك القدرة على النظم بالفصحى ، ولكنه رأى أن شعره الفصيح لن يصل إلى

مستوى شوقي وحافظ ومطران ، فاختار العامية لينفرد بها ، ونجح في ذلك نجاحًا باهرًا منقطع النظير ، بينما فشل منافسه وغريمه ومعاصره حسين شفيق المصري الذي لم تظهر أزجاله في

لحن واحد من ألحان الغناء ، وشفيق المصري هذا حكاية تستحق أن تحكى إذا كان في العمر بقية .

أقول لكم : لم يكن بيرم التونسي يكتب أزجاله لتغنى ، بل كان يكتبها كمبدع يعبر عن نفسه ووجدانه وحياة أمته بأفراحها وأتراحها ، ثم اختارها المغنون والمغنيات بعد ذلك ، ولكنه كتب أغنيات للأفلام والمسلسلات والبرامج الغنائية ، وكتب أيضًا للغناء ، بعد انصهار مواهبه الذاتية ، ورغم ذلك من المستحيل أن نقول عنه أنه كان محترفًا لكتابة الأغاني ، كما يفعل بعض الذين يكتبون الكلمات السخيفة المملة في أيامنا هذه .

ولكن رغم ذلك فقد جنى بيرم التونسي على الشعر العربي الحديث ، حين أقنع الناس بأن العامية قادرة على التعبير الفني الرفيع ، مع أن استخدامه للعامية كان وسيلة تعبير مشترك بينها وبين الفصحى ، فهو لم يستخدم اللهجة السوقية المبتذلة بل كان له قاموس خاص يضم ألفاظًا فصيحة ، وينظم بها قلائده وفرائده على الوزن والقافية ، ثم يسقط حركات الإعراب .

وليست موهبة العم بيرم التونسي هي في استخدام العامية الفصيحة أو القريبة من الفصيحة ، ولكنها موهبة شاعرية ، ترتبط بالتصور الشعري وليست اللغة فيها إلا مطية توصله إلى هذا الهدف الفني .